

الايديولوجيا والتواصل

لقد خلقت التحولات العظيمة التي عرفها العمل البشري في المجتمعات العصرية المصنعة علاقات انتاج مادية جديدة وبالتالي علاقات اجتماعية مغايرة، وقد امتد هذا التأثير الى الوعي بهذه التغيرات وبصفة خاصة الى التصورات العقلانية السائدة وجعل فلسفة الوعي او فلسفات الذات تعرف هزات عنيفة، فاختارت الحداثة العقل التواصل كمنخرج لهذه الأزمة، فهل يمثل العقل التواصل الجواب الامتن عن الازمة الحالية؟

للإجابة على هذا السؤال لابد من تحديد فرضيات ومكونات الاطار الفكري لنظريات التواصل والبحث عن طبيعة العوائق التي تحول دون تواصل حقيقي ومدى ارتباطها بالايديولوجيات السائدة.

الاستاذ سليم رضوان

L'Idéologie et la communication

Les grandes mutations que connaît la nouvelle organisation du travail dans les sociétés industrialisées contemporaines, ont fait émerger de nouveaux rapports de production ainsi que des relations sociales de plus en plus complexes. Ces mutations ont bouleversé les conceptions rationalistes, classiques et tout particulièrement la philosophie de la subjectivité qui continuait à leur tenir lieu de fondement ultime. L'on commence alors à invoquer une rationalité communicationnelle comme issue à la crise polymorphe que connaît notre monde actuel. Mais on peut se demander à quel point cette rationalité communicationnelle a réussi à surmonter cette crise. La réponse à cette question majeure nécessite une analyse approfondie des cadres théoriques des philosophies de la communication, analyse qui pourrait nous dévoiler les obstacles qui empêcheraient l'instauration d'une communication véritable.

الايديولوجيا والتواصل

عندما يتعلق الامر بمجال التواصل فإننا مرغمون على التفكير في الايديولوجيا بطريقة مخالفة ومغايرة، ذلك ان الممارسات الايديولوجية الراهنة تطرح امام الفلسفة مشاكل حقيقية بل وامام السياسة أيضا ذلك ان الزمان الذي كان فيه هؤلاء الفرسان الثلاثة يقطعون نفس الطريق قد ولى. فالفلسفة ذاتها تواجه اليوم قضايا مغايرة. والحدثة تراقب بعين الارتباب الممارسات الايديولوجية وهي تغير ثيابها، فالتحولات العميقة تهز مظاهر الوفاق الخادعة.

فكيف نفكر في الايديولوجيا انطلاقا من نظرية او نظريات التواصل؟ واي اساس تستند اليه الايديولوجيا ضمن علاقة التواصل؟ وما هي العوائق التي تمنع الايديولوجيا من التواصل؟
تنطلق فلسفات التواصل من التحولات العظيمة والهائلة التي عرفها العمل البشري وذلك نتيجة :

أولا : للظهور المتعاضم وحتى في مجال الصناعة، للعمل بواسطة الاشارات وعلى الاشارات مهما كانت طبيعتها لغوية او رياضية.

ثانيا : لمكنة هذا العمل نفسه بواسطة آلات سمعية وبصرية لسانية ومنطقية ورياضية.

وقد أدى ذلك إلى حدوث تغيرات مهمة في طبيعة العمل البشري التي تعددت اشكاله وانماطه، كما تم تجاوز الرؤيا التي كانت تعتبر العمل البشري العمالي او اليدوي كشكل وحيد للانتاج المادي، ومن الطبيعي ضمن هذا المنظور ان تظهر تغيرات في علاقات الانتاج المادية نفسها وان يؤدي ذلك الى التأثير على العلاقات الاجتماعية.

فلقد تمت زحزحة مفهوم الانتاج من موضعه وكما قال «ميشال سار» ان الانتاج كان يمثل المركز وليس التواصل، وإنه لرهان الاعلان عن موت إله مالك الحديد وميلاد إله المواصلات. . .

لقد اجتلت اذن مفهوم التواصل مكانه كمفهوم مركزي نتيجة التحولات التي عرفتتها طبيعة العمل البشري في المجتمعات الصناعية المتطورة ونتيجة الثورة التكنولوجية التي ادت الى احداث تغيرات في علاقات الانتاج المادية القائمة وقد امتد هذا التأثير الى الوعي بهذه التغيرات وبصفة خاصة الى التصورات العقلانية السائدة وهذا ما جعل فلسفة الوعي او فلسفات الذات تعرف هزّات عنيفة.

يقول هابرماس «ان فلسفة الوعي قد اصابها الانهاك وخارت قواها وان تغير النموذج بالانتقال من عقل مركزه الذات الى عقل مركزه التواصل من الممكن ان يكون حافزا للتغلب من جديد على الخطاب المضاد الذي سكن الحداثة منذ بدايتها».

ان المأزق الذي واجهته فلسفة الوعي هو بالضبط هذا التفاوت المستمر بين العمل والممارسات الانسانية والذي حاول هيجل تجاوزه بغرس الفكر في التاريخ وماركس من خلال فلسفة البراكسيس اما نقد نيتشه المتطرف فلم يجد مخرجا ملائما - كما يقول هابرماس - «لا لنقده للميتافيزيقا ولا بالنسبة لنظرية السلطة».

ولذلك نحن ملزمون للخروج من فلسفة الذات عن طريق آخر، ومن الممكن اذن ان نرى الاسباب التي قادت حادثة معينة الى الدخول

في صراع مع نفسها وإلى ممارسة النقد الذاتي بعين تدعو إلى رد الاعتبار إلى الموضوعات الساخنة التي تدعو منذ نيتشه إلى رفض الحداثة أو المعاصرة دون أن تقوم بمحاكمة مخالفة ولكن لا بد من التأكيد بأنه من غير الممكن أبدا الرجوع إلى العقل الخالص ضمن العقل التواصلية . . .

لقد اختارت الحداثة إذن العقل التواصلية كمخرج لازمة فلسفة الذات، فأمام تزايد الهوية التي تفصل « الأميريقي » عن « الترنسندنتالي » والتي أدت إلى نشوء هزات عنيفة على المستوى القيمي، ليس أمام العقلانية المعاصرة للخروج من المأزق سوى تجاوز الشكل الوحيد للعقل الخالص والمطلق والذي لم يعد ملائها، فهل يمثل فعلا العقل التواصلية الجواب الأمثل عن الازمة الحالية ؟ سؤال يطرحه دون شك كل من استمع إلى هذه الدعوة سؤال يصعب الجواب عليه بالنفي أو بالإيجاب . ولكن يمكن القول بصفة عامة أن الأشكال العقلانية للرأسمالية كانت تفرز باستمرار انماطا لا عقلانية وقد اختارت العقلانية ضمن استراتيجيتها

(1) مواجهة الانماط اللاعقلانية

(2) اعتبار الأشكال الأخرى للعقلانية أشكالا هامشية أو مضادة

وقد كان من نتيجة ذلك مباشرة أن الموضوعات الأساسية لا تجد حلها سوى في النسق العقلاني دون أن يكون لها التأثير الفعال على مؤسسات التنظيم المجتمعي وعلى الممارسات اللاواعية وعلى السلوكات اللاعقلانية .

إن التفكير في الأيديولوجيا يدخل ضمن هذا الإطار العام لفلسفات التواصل ولكن ما هو الإطار النظري الخاص بنظريات التواصل نفسها؟

تنطلق نظريات التواصل من مجموعة من الفرضيات أهمها أن عمليات التواصل تشمل الحياة المجتمعية في كل مظاهرها فهي عملية مستمرة تدمج أشكالا مختلفة من السلوك : الكلمة والنظرة والتعبير

الجسدي الفضاء العام للعلاقات الفردية المتداخلة وان هذه العمليات تخضع لمجموعات من القواعد الخفية، فاذا كان من الممكن تكلم لغة بطريقة صحيحة وبسهولة ودون ان يكون للشخص اي فكرة عن النمو فاننا نخضع في نفس الوقت وبشكل مستمر لقواعد التواصل ونحو التواصل دون وعي بها. للتواصل اذن منطقة الداخلي وقواعده اللاشعورية وهي قواعد تحكم وتوجه السلوكات اثناء علاقات التواصل، فالافراد لا يعون سوى الجزء اليسير من مظاهر التواصل. اما أغلب ذلك فتؤثر بطريقة لا شعورية به، ان النموذج التواصلية يكسب استقلاله من خلال تداخل وتوزيع المساهمات وهكذا تم تجاوز الشكل التلغرافي اي مرسل يبعث ببرقية الى مرسل اليه بواسطة الاشارات يتم فك رموزها، الى شكل الجوق الموسيقي، وهذا التشبيه يهدف الى توضيح كيف ان كل فرد يساهم في التواصل عوض القول انه الاصل او المرسل اليه، فصورة التوزيع اللامرئي تذكر بصفة خاصة بالمسلمة الاساسية عن نحو للسلوك يستعمله كل فرد من خلال علاقات التبادل مع الآخر بهذا المعنى يمكن الحديث عن نموذج الجوق الموسيقي المناقض للنموذج التلغرافي، يفترض النموذج التواصلية اذن توزيعا وتداخلا في علاقات التواصل السائدة، فالافراد يساهمون بوعي او بدونه في جميع عمليات التواصل، فمهما كانت مضامين الخطاب المرسل فان المتلقين له يفهمونه ويؤولونه بطريقتهم الخاصة، فما هي النتائج النظرية المترتبة عن هذه الفرضيات ؟

أولا : استقلال النموذج التواصلية، فتداخل العلاقات وتوزعها منح النموذج استقلاله عن البنيات الاخرى اذا اصبح مؤسسة قائمة لتوزيع الاشارات وفك الرموز واستقبال التأثيرات.

ثانيا : النسقية، فتجاوز الشكل الخطي للتواصل اقام شبكة متداخلة من العلاقات المتداخلة والمغلقة على ذاتها ومكتفية بذاتها بواسطة عمليات الادماج والاقصاء.

ثالثا : تعدد وتنوع اشكال التواصل ، اذ امتد ليشمل الاشكال الحركية والتعبيرية عوض الاختصار على اللغة وحدها.

رابعا : لا شعور التواصل سواء تعلق الامر بالتأثير الذي يحدثه الخطاب أو بالعلاقات التي تنشأ اثناء عملية التواصل او بردود الافعال فالجزء الكبير من هذه المظاهر خارج عن وعي الافراد وعن ارادتهم . تلك هي فرضيات ومكونات الاطار النظري لنظريات التواصل ، فما هو تأثير ذلك على الممارسات الايديولوجية؟

ان منطق التواصل هو بالضبط منطق الايديولوجيا ، فقد لاحظنا كيف تسعى الايديولوجيا الى بناء مؤسسة لتخيل مجتمعي والى الهيمنة بواسطة وسائط رمزية وقيمية وذوقية وجمالية واخلاقية مستقلة عن العلاقات المجتمعية ولقد اتسع مفهومها ليشمل ممارسات متعددة ومختلفة تضم كل الحياة الاجتماعية ، ان اساسها المادي لم يعد قائما فقط في العلاقات الانتاجية القائمة بل في جميع البنيات الواعية وغير الواعية ، وان المشكل الحقيقي للايديولوجيا ضمن هذا الاطار هو توزيعها بهذا الشكل الذي يتم فيه في نفس الوقت تهميشها فهي العلاقات السائدة في مجال السلطة وفي التنظيم المجتمعي والتبادل السلعي ، ولكن كذلك في تبادل القيم الرمزية وفي الحياة اليومية التي اصبحت الحياة الخاصة للأفراد وفي العلاقات بالاشياء وكذلك بالآخرين حيث يضع الانسان جوهره الحقيقي متمسكا بالاشكال والمظاهر والرموز انه المشكل العميق الذي تواجهه السلطة السياسية والابداع الفني والجمالي بل والاختراع التقني الذي اصبح يخضع الى هذه الميكانيزمات ، ان التركيز على المجال الاخلاقي فقط باعتباره المظهر الصارخ لهذه الهوة قد يولد الاعتقاد بان الاخلاقية يمكن ان تعيد للانسان جوهره الضائع . اتنا نحیی بذلك نقاش اليسار الهيجلي الذي مضى عليه زمن طويل .

ان ما حملته نظريات التواصل وهو ليس بالشيء القليل هو شمولية التواصل بل وكونيته ذلك اتنا نعيش في عالم يلعب فيه التواصل

دورا محوريًا وهاما ولكن لا يساهم فيه الجميع بنفس القدر ان الشكل التلغرافي للتواصل هو السائد وليس شكل الجوق الموسيقي ، وبالتالي فان الممارسات الايديولوجية لم تعد تتعلق فقط بهذا المجتمع او ذاك بل بالنموذج الرمزي الذي تخلقه علاقات التواصل والذي يمكن ان أسميه وسأستعمل هذه العبارة للمرة الاولى «إيديولوجية التواصل» فما هي اذن عوائق التواصل ؟ وما هي علاقة الايديولوجيا بهذه العوائق ؟

ليس المقصود بالعوائق الموانع التي تمنع قيام عمليات التواصل بل المقصود بالعوائق اشكال التغيير من تحريف وتشويه التي تلحق بعملية التواصل نتيجة عوامل خارجية وغير مباشرة .

(1) علاقات التواصل غير المتكافئة داخل النموذج التواصل لا يمكن الحديث بصفة مطلقة وعامة عن توزيع عادل ومتساوى للرموز وللإشارات ولا عن مساهمة متبادلة لكن المشاركين في عملية التواصل قد يحدث داخل الجماعة الصغيرة او المجتمع او على الصعيد العالمي ، وفي مجال الاعلام يقدم النموذج التواصل نموذجاً بارزا للهيمنة ولذلك من الصعب القول بأن كل افراد الجماعة يساهمون في عمليات التواصل .

(2) المفارقات التواصلية : في عالم غير متكافئ تتولد مفارقات كبيرة على مستوى القيمي من خلال تقديم نماذج رمزية كوسائط للتواصل وهذا ما يؤدي الى تعميق الهوة بين الوسط المجتمعي والعلاقات المبنية خارج هذا الوسط ، وفي المجال السياسي الى تعدد في نماذج الانظمة وفي مجال السلطة وفي مجال علاقتها بالافراد وما يترتب عن ذلك من دعاية او نقد او تشويه وبالنسبة كذلك للهوية الثقافية للافراد والمجتمعات ، ان هذه الهيمنة تؤدي بشكل أو بآخر الى التأثير بالنماذج المقترحة وردود افعال في مواقف متطرفة في هذا الاتجاه او ذاك ، ويمكن استعراض مجموعة من المفارقات لا حصر لها تتعلق بالحياة الفردية او الجماعة وهي مفارقات يمكن للملاحظ ان يتفطن لها في كل عمليات التواصل .

(3) الوسط الايديولوجي ، ان مجموع التأثيرات الخارجية التي تتسرب

الى عملية التواصل والتي ينقلها الوسط او المحيط والاحكام المسبقة والمواقف اللاشعورية الناتجة عن الحالة النفسية الآنية او الموقف السياسي او الثقافي العام او التصور الفلسفي او الديني فهذا الوسط يؤول ما ينقل اليه لا حسب طبيعة ذلك ولكن حسب ما يحققه ذلك التأويل من رغبة .

هل يعني ذلك ان الايديولوجيا عائق من عوائق التواصل؟
في نموذج ستاتيكي جامد للتواصل قد يكون الوسط الايديولوجي عائقا عن التواصل ولكن في نموذج حي ودينامي قد يكون إيجابيا وقد يمنح الحوار خصوصيته ذلك انه ليس الخضوع للخطاب ولكنه كذلك رفض له ، والرفض قد يمتن جسرا للحوار وقد يمثل القطيعة .
هل ان عالم التواصل قريب منا او بعيد عنا؟ هل نواجه نفس المشاكل وعلينا الجواب على نفس الاشكاليات؟

أولا : على المستوى الفلسفي ، تمثل العلاقة بالآخر المسألة الجوهرية لكل تواصل وعلاقتنا بالآخر لم تطرح باعتبارها تمايز جوهرين متعارضين بل يفكر فيها في اطار الجماعة ، وذلك هو الجوهر الانطولوجي الوحيد ، اما الآخر المقابل للذات الذي هو خارج عن الجماعة وعن الامة فهو الخصم او العدو فبين الذات والآخر ليس هناك حوار انطولوجي بل هناك صراع ، ان الآخر كما تفكر فيه فلسفة الوعي يندرج ضمن تصور خاص للآخر فهو في عمقه يقاب بين كائنين متميزين انطولوجيا يضع كل واحد منهما نفسه في مقابل الآخر في استقلال عنه .

اما بالنسبة لنا فان المشكل ليس انطولوجيا بل هو في قلب الايديولوجي ونخضع لموازين القوى اكثر منه للموقف السياسي ، ان العقلانية ذاتها لم تتمكن من استيعاب الاشكال الاخرى المغايرة لها ، اما القبول لهيمنة العقل المطلق او الرفض والتدمير . فنمو اللاعقلانيات وتطورها في اغلب الحالات رد فعل على الممارسات العقلانية نفسها ، انها تزرع في طريقها بذور اللاعقلانية ومن اجل ذلك فان التفكير الفلسفي

لم يجد ولم يعثر على الخطاب الملائم ذلك لانه لكي يحتل مكانته عليه ان يقبل بهيمنة العقل ولكنه لكي يتمتع بالمصداقية وبالمشروعية التاريخية عليه ان ينصت في نفس الوقت وبذكاء لوقع خطوات التاريخ الملموس .

ثانيا : على المستوى الايديولوجي ، ان تفكيرنا في الايديولوجيا لا يحيل بالضبط على نفس المراجع المادية والفكرية، ان عمق المسألة هو في الممارسة الايديولوجية واشكالها ما قبل الممارسة الرأسمالية ولذلك يجب التقليد ويحتل ضمن المؤسسات المجتمعية مكانة مرموقة ، فأساس المادي ليس ناتجا من العلاقات الانتاجية السائدة ولا من مستوى العمل البشري ولا من تطور فلسفة الوعي ، بل له أساس تاريخي هو ذلك الذي يحمله وعي الجماعة والذي يرسم الطريق من اجل الحفاظ على الاستمرارية التاريخية فوق تقلبات الدهر وتغير المعاش .

ما هي المكانة التي يحتلها التواصل داخل هذا النظام الايديولوجي ؟

ان الاداة التي يجب تحليلها هي الخطابة كأسلوب للتواصل وليس الخطاب فالخطا به بما تحمله من مجازات وتشبيهات وبما تحمله للمستمع من خيال تنقل الكلمة او العبارة من مجال اللغة الى مجال الايديولوجيا . ان المتكلم ليس هو ذاك الذي ينطق الكلمة فقط ولكن هو الذي يقول الحقيقة او يدّعي انه يمتلك الحقيقة وبين الذي ينطق الكلمة والذي يستمع اليه مسافة ، لو كنت فكرت بعمق في هذا المشكل من قبل لاخترت موضوعا آخر أهم هو : «التواصل والزمان» .

الأستاذ سليم رضوان
كلية الرباط محمد الخامس